العلامة اللغوي

الأب أنستاس ماري الكرملي

بعث إلي بهذه المقالة صديقي الكاتب الأستاذ محمد فاتح توفيق المدرس بمطبعة دار المعلمين ببغداد ، ومعها صورة للغوي الكبير الأب أنستاس بعد موته بساعات ، وطلب الي أن أضمها الى احدى مجلاتنا المصرية ، فآثرت بها مجلة « المقتطف » لأنها شيخة المجلات العربية ، ولأنها كانت مسرحاً لأبحاث فقيد اللغة الكرملي ...

ولقد كان بيني وبين الأب البحاثة صداقة ومراسلات منذ سنوات ، وسأعود الى الحديث عنه فيما يأتي من أعداد المقتطف ، وفيما يلي نص المقالة :

أحمد الشرباصي

الأب أنستاس ماري الكرملي مسجّى

وعلى حين غفلة طوت يد الأقدار ابن العربية البار ، والعلامة اللغوي الأب أنستاس ماري الكرملي . وما هي الا عشية أو ضحاها حتى أصبح أثراً بعد عين ، وميتاً يرثى بعد أن

كان حيثما يرجى، جفّ ذلك البحر الزاخر ونضبت تلك العين الدفاقة بفيض العلم والعرفان واندك ذلك الطود الأشم وسكت هزيم رعده وصوته الجهوري وانطوت تلك الصحراء الواسعة من الحلم والكمال وسقطت تلك الثمار الدانية من التواضع والجلال وسكنت الريح الصرصر العاتية في الخصومات والنقد، ولم يهب ذلك النسيم العليل من الآن واستناز ـ خسرت العربية أيما خسران.

حقاً إن القول ليقصر عن إدراك مدى هذا الرجل العظيم علمه وعمله. وإن المرء ليقف عاجزاً عن أداء حق علامتنا المفضال الذي خدم العربية والعلم أكثر من ستين عاماً كان خلالها مثالاً للرجل الكامل العامل الغاص المثابر الذي تزوّد بالعلم الصحيح والخلق الرضي والأدب الجم، فكان سبّاقاً لا يبلغ شأوه أحد ولا يصل الى مقامه مجتهد.

***

ولد رحمه الله في بغداد سنة ١٨٦٦ في اليوم الخامس من آب (أغسطس) وتوفي في بغداد أيضاً في المستشفى الملكي صباح يوم الثلاثاء في اليوم السابع من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٤٧ فيكون عمره ثمانين سنة وخمسة أشهر ويومين.

وتعلم من اللغات أكثر من عشرين فقد أتقن الفرنسية واللاتينية واليونانية والعبرية، والصابئية، والكلدانية، والتركية، والفارسية، والانكليزية، والسريانية، وقليل من الإيطالية وكان يفهم البرتغالية. وقد تعلم الحبشية والاسبانية ثم نسيهما ولم تسنح له الفرصة لتعلم الألمانية وغيرها، ذلك لأنه استدعته الكنيسة في بغداد حيث كان يدرس في فرنسة.

وقد حوت خزانة كتبه ستة عشر ألف كتاب منها ألف وخمسمائة كتاب مخطوط. وكان كثير العناية بكتبه يغلفها بقماش متين أبيض، وإن أكبر نكبة أصابته سرقة خزانته منه في الحرب العظمى الأولى أيام كان أسيراً في الأناضول — وهناك تعلم اللغة التركية — وعند عودته اضطر الى شراء كثير منها بأغلى الأثمان واشترى أكثرها من سارقيها بوساطة آخرين، وإن لكل كتاب لديه قصة طريفة، فهو يحدثك عن شرائه وعن معرفه ببائعه ومساومته له حتى يصل الكتاب الى خزانته:

وقد جاب الآفاق والأقطار لجمع هذه الكتب وللبحث والتنقيب والدرس، وزار معظم الممالك في القارات الثلاث: آسية وأوربة وأفريقية، ولم يتسنّ له زيارة أميركة، وأسترالية، وعند ما يحدثك عن كتاب مفقود فكأنه يحدثك عن أعز ولد له قد فقد. وفي الحقيقة،

لا أحسب أنه كان يحزن لفقد ولد — لو كان ذا ولد — مثل حزنه على كتاب مفقود من كتبه النادرة .

وأعظم مؤلفاته معجمه الكبير « المساعد » الذي اشتغل به زهاء ست وستين عاماً ، أي منذ الخامسة عشرة من سنه ، وعنده ما مثلي : وهل انتهى هذا القاموس ؟ أجاب : « وهل تنتهي اللغة العربية ؟ أنا الذي انتهيت » .

وقد قضى سنواته الأخيرة يعاني الأوصاب والأوجاع ، ويحتمل الآلام في ظروف قاسية بين أناس لا يرحمون ، ولم يجد من يخدمه أو يُعنى به ، إلا أهل بيت له صلة قرابة بهم أسكنوه معهم — بعد أن هدم الدير الذي يسكن فيه — فأحسنوا خدمته ورعايته ، وذلك قبل سفره الأخير الى فلسطين .

ولقد أقيمت له حفلات الترحيب في فلسطين في زيارته الأخيرة لها ، وكان يذكرها بالشكر والتقدير للقائمين بها . ولقد عولج هناك وشفي . ولما عاد إلى بغداد أحاطت به نفس الظروف القاسية واحتواه أناس يحقدون عليه ويكرهونه ، إذ هم غرباء عن هذا البلد ، وما له معز منهم ، فجرى بينه وبينهم ما أثار أعصابه فنكس وعاوده المرض أشد من قبل ، فقررت الحكومة العراقية نقله إلى المستشفى الملكي ومعالجته على حسابها . وبقي هناك حتى وافاه الأجل المحتوم بانفجار في الدماغ .

زرته في المستشفى أسأله عن صحته وحاله مع نفر من الاخوان . فقال « إنك تراني كيف أصبحت وبأني أشكو من شلل في كفي اليمنى ورجلي اليمنى وإني لا أحسهما كخرقة لا أحس بهما ولا أستطيع تحريكهما ولا أقوى على السير على رجلي اليمنى أو الكتابة والمسك باليد اليمنى . ومع ذلك فأني لا زلت أردد عاطفاً إلى الحي العظيم ، كلما زدتني ألما زدتك حباً . فقلت له خيراً ودعوت له بالشفاء .

وكان يسير في طريق الشفاء فقد زرناه مساء الاثنين السادس من كانون الثاني (يناير) أي قبل موته بساعات فكان صحيحاً معافى ، ذوي النبرات لطيف الكلام — كعادته — مرحاً يلقي النكتة إثر الأخرى ويقول الدعابة ويتبعها بغيرها . وهكذا قضينا الوقت ونحن نحسب أنه سيغادر المستشفى بعد أيام قلائل . فكان لنعيه وقع شديد في نفوسنا . وكان موته مفاجأة لنا أذهلتنا وأطارت رشدنا .

وإذا ذكر الاب أنستاس الكرملي فلا بد وأن يذكر معه « مجلس الجمعة » وما مجلس الجمعة هذا ؟

كان من عادة الأب الراحل أن يعقد اجتماعاً صباح كل جمعة من الساعة التاسعة حتى الثانية عشرة يقبل فيه زائريه، وتتخذ إحدى غرف الدير هذا المجلس، وما عدا ذلك يتفرغ للبحث والعمل ولا يقبل زائراً إلا إذا كان معه على وعد سابق أو في أمر مهم.

* * *

وكان يختلف الى مجلسه جماعة من المشتغلين بالعلم والأدب ومن مريديه ومحبيه وعارفي فضله فيدور البحث في مواضيع شتى من لغة وأدب وعلم وتاريخ وفن — ما عدا السياسة والدين — وفي كل ذلك للاب رأي فيه ونصيب وافر منه. وكثيراً ما كان يحتدم الجدال بين حضرة الأب والأستاذ عباس العزاوي فيثور العزاوي ويقابل الأب هذه الثورة برحابة صدر وطول بال. فما هي إلا لحظات حتى يعود الصفاء وتحل الابتسامة محل التجهم وكأن لم يكن شيء، وما كان الأستاذ العزاوي يثور هذه الثورات العصبية ويبلغ الحدة به أحياناً مبلغاً كبيراً في حضرة الأب ومجلسه، لولا الصداقة المتينة التي تربطه به والتقارب النسبي في السن، أما غيره فيلجأ الى الهدوء والأدب والاحترام في مناقشاته مع الأب ويجادل بلطف، فإما أن ينتصر أو أن ينزل عن رأيه. وفي معظم الأحيان يكون للاب القول الفصل والحكم القاطع.

ومن أظرف ما كان يحدث في هذا المجلس، المنافسة التي كانت تحدث بين المرحوم الأب والأستاذ العزاوي في الكتب، فللأخير أيضاً خزانة كتب عامرة، فهذا يقول عندي الكتاب الفلاني وهو ينقصك وذاك يجيب بأنه يوجد لدي منه مما لا تملكه، وهكذا. ولقد يسأل بعضهم بعضاً عن الجديد في خزانة كتبه أو ما جد في عالم التأليف.

ويتلو على مسامع الاب كل ما سطر من مقال أو دبج من موضوع أو نظم من شعر في مختلف المواضيع، ولا يفوته خطأ إلا نبه عليه. وتعرض عليه أسئلة مختلفة فيجيب عنها جواباً شافياً صريحاً لا لبس فيه ولا ابهام مع الدليل والبرهان والحجة.

ولقد كان الجميع موضع اهتمام الاب وعنايته فيسأل عن كل واحد منهم سؤال الأب الحنون والأخ الكبير، ويعتب على من يغيب عن مجلسه وربما أغلظ في العتاب إن لم يكن الغياب عن عذر مشروع أو مانع معقول.

ولا يقدم في مجلسه شيئاً مما يقدم في المجالس الأخرى كالقهوة أو الشاي والسيكارة أو ما شاكلها. ولقد قال مرة لمعالي الدكتور ابراهيم عاكف الآلوسي — في إحدى زياراته له —

وكان إذ ذاك وزيراً للمعارف : « يا صاحب المعالي ، الرَّبع[1] هنا يعرفون أنه ليس في مجلسي شاي ولا قهوة حتى ولا سيكارة لذاقت عاطر » . فضحك معاليه وقال هذا مجلس علم وأدب ويكفينا ذلك .

وقال لمعاليه أيضاً : إن أكثر الحاضرين في هذا المجلس من رجال المعارف من معلمين وطلاب فهم أتباعك . فسرّ معاليه وقال : أنا أيضاً طالب علم في مجلسك .

ولقد تخون الذاكرة ، فيطول البحث في موضوع أو عن كلمة فلا يهتدي الى موضعها أو مظنتها ، ثم يقبل الدكتور مصطفى جواد ، وهو من أصفيائه وملازميه فيحل المشكلة بأن يذكر لهم المصدر أو التاريخ حسب المطلوب والحاجة ، وذلك بما وهب من ذاكرة قوية وحافظة عجيبة .

ولئن تماديت في ذكر أفراد مجلسه يطول بي الكلام ويطول . ولكن إن أنسَ فلا أنسى ذلك الفتى الألمعي الذي كان زينة المجلس الاستاذ علي غالب العزاوي المحامي شقيق الاستاذ عباس العزاوي . وقد كفَّ بصره عند الكبر . فقد كان حلو الحديث والشمائل ، حاضر البديهة ، سريع النكتة ، مرحاً لطيف المعشر ، ذا أخبار وأحاديث طلية ومسرّة . وقد اغتالته يد المنية فات شهيداً .

وكانت طريقته في البحث والدرس علمية صحيحة لا يلقي الكلام على عواهنه ولا يقول القول جزافاً ولا يؤمن إلاَّ بما يثبت بالدليل والنص والتجربة .

وكان يحب من يحافظ على مواعيده ويتمسك بها في الوقت المحدد فإن اتفقت وإياه على موعد وجب عليك أن لا تخالفه وإلاَّ تعرضت لنقمته ونقده .

ومن عاداته أنه لا يهمل أي رسالة ترد إليه فيرد عليها في الحال بنفسه أو يكلف غيره إن أقعده عن ذلك مرض .

وكانت الروائح القوية تزعجه وتثيره وخاصّة رائحة الحرة فلا يقوى على شمها .

واحتفظ الى حين وفاته بقواه العقليـة كاملة وبحدة بصره وقوة سمعه وبنبرات صوته القوي الجهوري ، وبيداته وقوة بنيته ، على الرغم من اصطلاح العلل عليـه وخاصّة في السنوات الأخيرة من حياته ، وعلى الرغم من قضائه الوقت بالدراسة والمطالعة والبحث .

ولقد كان دائب المطالعة والمراجعة حتى إنه ليقرأ الكتاب الواحد من المراجع المهمة

---

(١) الربع : بمعنى الاصحاب .

عدة مرات ، فترى مثلاً وقد كتب في نهاية كل جزء من أجزاء « تاج العروس » انتهيت من قراءته للمرة الثالثة أو الرابعة (أو أكثر) تاريخ كذا . وهكذا الشأن في معظم كتبه وهل تحسب أنه يقرأ هذه الكتب قراءة عابرة ؟ — لا . إنه ليدقق ويحقق ويعلق ويضع الخطوط الزرق تحت ما هو مغلوط فيه والخطوط الحمر تحت ما هو صحيح أو موافق رأيه .

وكان شديداً على خصومه عنيداً معهم — وما خصومه — إلا أعداء العربية والذين ليس لهم منها نصيب وهم مع ذلك أدعياء فيها ، فيهزأ بهم ويتهكم وينعتهم بمختلف النعوت التي لا ترضيهم ، فإن كثرت أخطاء أحدهم مثلاً ، نسب كتابته أو قوله الى اللغة الشقناقية لغة — فريق من الجن — أو لغة واق الواق وهكذا مما لا نحيه اذا كرة .

ومع ذلك كنت تراه يشجع الناشئين ويأخذ بأيديهم ويبث فيهم روح الأمل ويبعث في نفوسهم الهمة ويثني عليهم ويرفع من قيمتهم وهممهم وإن لم يكونوا أهلاً لذلك .

* * *

وبعد فالحديث من الأب أنستاس الكرملي كالحديث عن البحر أو الغيث الذي ينهمر ، طويل لا ينتهي ، وواسع لا يحد ، فقد كان أمة وحده وشخصية عجيبة غريبة يجب أن تؤلف عنه الكتب وتدرس سيرته . وكم كنت أود أن يزوره في حياته كل متكبر مغرور جبار ، ليأخذ منه دروساً في التواضع وكمال الخلق واللطف والأدب الجم وكرم الأخلاق .

وإن فقده لا يعوض ، فقد ترك حبيبته اللغة العربية تلطم خدها وتشق جيبها على من رعاها عشرات السنين وأنزلها من نفسه أسمى منزلة وأكرم مقام . وهي اليوم مفجوعة لا تجد له بديلاً ولا ترضى عنه عوضاً .

وإن بموته تفرق ذلك الجمع النظيم من طلاب العلم والأدب ، ومن رواد علمه ومرتشفي فيض علمه ومعرفته ، وفقد ملجأه الروحي الذي إليه يسكن .

أيها الأب الراحل الكريم ، إن فضلك علينا عظيم ، وتقمك صميم ، وهيهات أن نستطيع رد هذا الفضل وما لا يدرك كله لا يترك جله . ويكفينا أننا بكينا الدمع السخين على جثمانك وما زلنا نبكيه كلما خطرت على بالنا ، وأنت ممثل في الخاطر دائماً . وإننا سنظل محتفظين بذكراك ، وناهجين على منهجك القويم ، وسائرين على خطتك . فنم هانئاً آمناً ناعم البال . وعوض الله اللغة العربية خيراً . وعليك رحمة الله .

بغداد

محمد فوزي توفيق